

إستراتيجية التعليم

عز الدين المخرومي
Université d'Oran

يعكس الحديث عن إستراتيجية التعليم وعيا متقدما، ناقدا لواقع التعليم عندنا، في زمننا الراهن، وهو يتضمن دعوة إلى مراجعة الذات، والعمل على البحث عن سبل جديدة تجدد فلسفة التعليم عندنا بصورة ديناميكية فاعلة تجعلنا قادرين على مواكبة روح العصر، وبخاصة في زمن العولمة التي تريد احتواء أمتنا.

ولهذا، يُعدّ التخطيط لسياسة التعليم الخطوة الأولى في سياسات الأمم الأصيلة الراقية، وذلك من أجل إعداد قاعدة تقوم عليها كل النظريات التربوية والتجارب المستمرة حولها، بغية إعداد برامج تشترك - بتكاملها - في تشكيل شخصية الأجيال التي ستتسلم لواء قيادتها وترسم خطواتها في مسار الحاضر والمستقبل بوعي كامل، وتحافظ على شخصيتها وبقائها ثابتة عبر التاريخ الطويل.

ومن هذا المنطلق نرى علماء النفس والتربية وعلم الاجتماع و كبار المفكرين في الأمم الراقية يعكفون على إعداد نظريات في التربية وعلم النفس، تُكوّن الأرضية الصلبة التي تُؤسّس عليها برامج التعليم، من الروضة إلى الجامعة، كما تعمل على إعداد المدرّس الكفاء القادر على تطبيقها، بصورة علمية عملية ناجحة.

ويتأكد من خلال كل ذلك أن إستراتيجية التعليم - بصفة عامة - تتضمن فلسفة ذات أبعاد تاريخية، حضارية، ثقافية للمجتمع أو الأمة، وهي فلسفة التخطيط لغايات وأهداف التعليم في مختلف مراحله.

وسننطلق في حديثنا عن إستراتيجية التعليم، في بلادنا، من تجربتنا الذاتية التي تعكس واقعا عشناه منذ سنوات الاستقلال الأولى في مراحل التدريس من الابتدائي إلى الجامعة. ومما لاشك فيه أن كل الذين عاشوا هذه المرحلة أو المراحل في ميدان التعليم يعرفون التجارب المتعددة التي طبقت في المدرسة الجزائرية، بجوانبها الإيجابية والسلبية.

و من أكبر السلبيات التي مازلنا نعيش في إطارها، الارتجالية الغالبة في وضع البرامج التعليمية...، وهذا يعكس أننا لم ننطلق من مقومات شخصية الأمة ومتطلبات تطورها، ذلك لأن وضع برامج التعليم، في أي مرحلة من مراحلها (من الروضة إلى الجامعة)، يحتاج إلى دراسة تحليلية كاملة لتاريخها وكلّ ثوابتها وفهم واقعها ومتطلباته وما تحتاجه لتضمن أصالتها واستمرارها، وبخاصة -كما سلف الذكر- في ظل النظام العالمي الجديد الذي انضوى تحت مظلة العولمة التي تعمل على إذابة خصائص الشعوب الضعيفة وبخاصة منها الشعوب العربية والإسلامية

ولهذا، فإن التبعية والمسؤولية الكبرى تقع على عاتق واضعي البرامج التعليمية، الذين يطالبهم ضمير الأمة بإعداد برامج - بخاصة في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية - تُكسب أبناءنا مناعة ضد كل فيروسات الفكر التي يُسمم بها الغرب عقولنا.

إن الحديث عن إستراتيجية التعليم والمخططين لها أثار في ذهني مجموعة من التساؤلات أو الأسئلة المتشعبة المترابطة التي أرى أنها تمثل منهجية الكتابة حوله، وهي تتمثل في التالي :

- مَنْ هُمْ وَاضِعُو إستراتيجيات التعليم وبرامجه وما هي مقومات شخصياتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية؟.
- هل هم من الساسة أم من رجال التعليم الذين يكتسبون خبرة واسعة وواعية في ميدانه وهم مؤهلون لذلك؟
- ما هي مصادر ثقافتهم وانبثاقهم الفكري والإيديولوجي؟
- وهل تتناسب مفاهيمهم الشخصية للحياة مع مقومات فكر الأمة بكل ما حوى من ثوابت؟
- ما هي الفلسفة التي تقوم عليها برامج التعليم -التي يعدونها- من الروضة إلى مرحلة التعليم العالي في بلادنا؟
- وما هو نوع الإنسان الذي ستعده هذه البرامج حتى يكون فردا عاملا، فاعلا في الأمة؟
- هل هو إنسان يملك وعيا كاملا بالذات، يقدر ثوابته ويقوم بدوره في مجتمعه وأمتة، أم هو إنسان، نموذج لإنسان آلي، أسهمت تلك البرامج التي تلقنها - منذ طفولته إلى تخرجه في الجامعة - في صياغة ذهنه مجردا من الإحساس بالذات خاضعا، بصورة انبهارية، إلى التأثير الكامل الذي سلطته عليه البرامج التي أعدت بفلسفة الآخر؟

حقاً...، إن المحور الأساس للحديث عن إستراتيجية التعليم هو الحديث عن الذي يخطط لها ويرسم مسارها، إنه العنصر الفاعل، الذي يتصور فيخطط و يؤكد فيأمر بالتطبيق، وهو الذي يرسم مسار الأمة الفكري والثقافي والاجتماعي، بتمثله لكيانها، في الحاضر والمستقبل، وهذه هي مسؤولية لجان إعداد البرامج، كما سبق التوضيح والتأكيد..

وبما أنني ليست عضواً من أعضاء لجنة إعداد البرامج ، لا على المستوى الجامعي ولا غيره من مراحل التعليم السابقة ، ولا أعلم ما يجري بين أعضائها من مناقشات و حوارات و مخالفات، فأبني كثيراً ما أتساءل تساؤلاً يعبر عن براءة الذي يريد أن يعرف ، و هو :

1. - هل للجان إعداد البرامج الجامعية - عندنا - فلسفة مؤسسة قائمة على الوعي بالذات و المحافظة على خصوصيتنا ، أم أنها تقوم على العشوائية، و الانتقائية، أو « ركوب الموضوعات»، كما يقول الناقد الأسترالي جورج واطسون في باب حديثه عن ركوب الموضوعات الأدبية ؟
2. و ما أقوله عن إعداد البرامج الجامعية أقوله عن إعداد برامج كل مرحلة من مراحل التعليم السابقة، ذلك أن الجامعة - كما هو واضح - هي آخر مرحلة من مراحل التعليم . وأعود لأضيف تساؤلاً آخر أكثر براءة من سابقه، و هو :

إذا كان هناك تخطيط واع لكل مرحلة من مراحل التعليم، فهل هناك تنسيق بينها، يقوم على خط فلسفي تربوي واحد، تتدرج فيه هذه المراحل لتشكل رؤية موحدة تعكس -بتكاملها- إستراتيجية للتعليم في بلادنا واضحة المعالم والأهداف ؟

و لكنني أعود ، متجاوزاً كل تساؤلاتي وحدود حيرتي التي لم تمدني بأيّ إجابة ، محاولاً - بنظرة أكثر واقعية و عمقا - استقراء واقعنا التعليمي بحثاً عن إجابة من خلال استقصاء ما هو سائد فيه، من البرامج التعليمية، بكل مراحلها . وبعد تفحص الكثير منها وقفنا عند حقيقة تتمثل في أنها تقوم - في جانب كبير منها - على الارتجالية، بحيث نرى أننا لم نلتزم، منذ سنوات الاستقلال، بوضع إستراتيجية ثابتة للتعليم. و لعنا وجدناها في التعليم الأساسي، على الرغم من بعض السلبيات والنقائص التي لازمتها و لم نعمل على التخلص منها، و تجديد النظرة إليه ليصبح أكثر مواكبة للعصر، و لكننا تخلصنا منه تماماً لنعود إلى نقطة البداية - إلى محطة الماضي - برؤية للتعليم أثبتت نقائص كثيرة، لأنها لم تقم على فلسفة تعبر عن الذات و تحمل خصوصية الأمة، بل قامت على فكرة مؤسسة تخدم مفاهيم و رؤى معينة غير قائمة على أفكار أصيلة، و لم يضعها أهل الميدان من المتخصصين المؤهلين، ذلك أن المتخصصين يدركون -بحكم ثقافتهم في التربية و

علم النفس و ممارسة التدريس و الخبرة الطويلة فيه- أنّ تعليم الطفل الجزائري لغة ثانية، إضافة إلى لغته الأم، ابتداء من السنة الثانية من التعليم الابتدائي بصورة تبدو تعسفية، تَغْلِب فيها الجانب السياسي على الجانب التربوي والاجتماعي والنفسي للطفل ، ذلك أنّ وضع البرامج وتقرير المواد الدراسية يقوم على دراسة البُعد التربوي الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع الطفل الاجتماعي الذي يعكس وضعه في الأسرة والمجتمع ، أي معاملته ومكانته داخل الأسرة وأثرها في تشكيل شخصيته المرتبط بدرجة أو درجات صحّته النفسية، وبخاصة في ظلّ الظروف المؤلمة التي مرّت بها الجزائر، وتركت آثارها النفسية السلبية على الكبار وبخاصة الصغار الذين عانوا منها كثيراً، و لا أشكّ أن أحدا يخالف هذه النظرة الواقعية التي عاشها الجميع، هذا إلى جانب الصراعات المفتعلة حول الهوية التي عطّلت مسار الأمة ونشرت الفتنة في المجتمع، وعدنا إلى البحث عن هويتنا من جديد، فوقعنا ، منذ نهايات الألفية الثانية وبدايات الألفية الثالثة - بالذات - ، في جدل بيزنطي عميق عجز الساسة عن إيجاد حلّ له؛ لأن الانقسام قد بثّ سمومه في النفوس...

أقول - بكل اختصار-: إن هذا الواقع القائم يتطلب منا تبني اللغة الأم- بعيدا عن كل سياسة مغرضة- لأنها اللغة الموحدة لكل فئات الأمة فهي لغة حضارتها ولغة دينها ولغة تواصلها مع العالم العربي بعامة، فضعفها من ضعفنا وقوتها من قوتها.

ولهذا فإن على واضعي إستراتيجية التعليم ومُعَدّي برامج التعليم عندنا أن يعملوا على تعليمه اللغة الأمّ لأنه ما زال في مرحلة الاستقبال والتأسيس الذهني فهو يتشربها بكل ما حوت برامجها من قيم أخلاقية ودينية و تاريخية و حضارية، تقوّي فيه روح الانتماء للوطن، ولأمتة ودينه وكل هذا يشكل قاعدة لشخصيته وأصالتها، و بعد ذلك نعلمه أيّ لغة نشاء ، لأن نفسه مستقرة .. لا تشويش فيها ولا اضطراب...

و نحن لا نستغرب تدريس لغة ثانية بنجاح - ابتداء من السنة الثانية - في دول كفرنسا وألمانيا وإنجلترا وأمريكا وغيرها من الدول المتقدمة التي تراعي الطفل منذ أن وجوده جنينا في بطن أمه، بالرعاية الكاملة لها ؛ غذاء وعلاجا وإشرافا نفسيا . وقد راح الألمان برعايتهم هذه إلى تلقين الطفل الحروف وتنمية ذوقه الموسيقي بإسماعه -وهو في بطن أمه- مقطوعات من الموسيقى الراقية. يولد الطفل عندهم وهو يملك الاستعداد والقدرة على استيعاب العالم...، أما الطفل عندنا على وجه العمود فإنه لم يعرف وهو في بطن أمه أو خارجها تلك العناية.

ولهذا، نقول لواقعي إستراتيجية التعليم عندنا يجب أن تراعوا هذه الحقائق التي أكّدها الواقع في ميادين التجارب العلمية والنفسية والاجتماعية. وقد سألت الكثير من المدرّسين عن نتيجة تدريس لغة ثانية للتلميذ في مدارسنا - ابتداء من السنة الثانية - فكانت إجاباتهم أنها بلبت أفكار الأطفال في السنة الثانية بحيث اختلط عليهم الأمر فهم لم يمسكوا بالعربية ولا بالفرنسية وعاشوا بلبلة ذهنية في حين أن التلميذ في الغرب يملك استعدادا وقدرة على استيعاب لغة ثانية بكل سهولة ودون أدنى معاناة... علينا أن ننبع من ذاتنا، من قيمنا، وخصوصيتنا، كلما فكرنا في الأخذ عن الآخر...

هذه النظرة الواقعية، لإستراتيجية التعليم، من فلسفة الأمم الراقية المتحضرة التي تحترم قيمها وخصوصيتها، فالياباني يبقى دائما يابانيا و الصيني يبقى دائما صينيا والفرنسي يبقى دائما فرنسيا و اليهودي يبقى دائما يهوديا، كلّ منهم يحترم قيمه و يقدها، مهما تعلم من لغات و مهما طال به العمر، و هكذا كلّ الشعوب الحيّة .. لا يمكن للفرد فيها أن يضعف لأنّ شخصيته مؤسسة على ثوابت مقدسة - تشبّع بها منذ سنوات دراسته الأولى، و نمت معه - فهو لا يبغى عنها بديلا .. إته لا يذوب في الآخر مهما عظم شأنه .. إنه الإحساس بالذات، وبالانتماء إلى مجتمع تشرب خصوصيته، وأصبح يعتز به ويفخر...

وأنا ، هنا ، لستُ بصدد تقديم دراسة تحليلية لكل برامج التعليم عندنا ونقدها، في إطار إستراتيجيتها، فهذا موضوع آخر طويل، وإنما وقفت عند نماذج محورية ، أردت من خلالها إثبات ضعف البرامج عندنا وعشوائيتها في الكثير من خطاها، وبخاصة - كما سبق الذكر - في العلوم الإنسانية . وكثيرا ما تساءلت عن التغيير السريع للبرامج، وعلى وجه الخصوص في الجامعة، بحيث نسمع كل سنتين أو ثلاث سنوات أن البرامج في قسم الأدب - مثلا - قد غيّرت، وهذا يعكس أن مقاييس قد أبعدت من البرنامج الجديد، مثل إبعاد مقياس علم الاجتماع الأدبي ومقياس علم النفس الأدبي، هذين المقياسين اللذين أرى أنهما من أهم المقاييس التي تُشكّل ذهن وشخصية الطالب علميا واجتماعيا، كما استغربت في السنتين الماضيتين إبعاد أو إقصاء مقياس الحضارة العالمية ومقياس الحضارة الإسلامية، والأغرب من كل ذلك إقصاء مقياس تاريخ الجزائر، من قسم اللغة العربية، بل وحذف - سابقا - مقياس الثورة الجزائرية ، وعوّضت كلها بمقاييس لا تبدو أكثر فائدة منها لبناء شخصية الطالب المعرفية والوطنية .

أقول هذا لأنني على يقين من أن طلبة الأدب وطلبة الفنون الدرامية - على وجه الخصوص - هم الذين يكتبون، بل وينقدون، الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة وبخاصة إذا كانت موضوعاتها حول الوطن وأمجاده والأمة

وحضارتها . إذن , كيف يكون الموقف من كتاباتهم وهم يجهلون تاريخ أمّتهم ووطنهم، وبخاصة الأجيال الآتية التي تعيش هذه القطيعة كاملة ؟!

وهنا، أسأل لصالح من بل خدمة لمن حُذفت هذه المقاييس، وغيرها كثير...؟!

- هل هذه إستراتيجية أم غياب إستراتيجية ؟!
- أليست هذه هي العشوائية والارتجالية بذاتها ؟!
- إن الأمم النبيهة تضع برامج التعليم - منذ الروضة إلى الجامعة- وفق رؤية فلسفية..ثقافية..حضارية واعية، تؤسس لبناء شخصية الإنسان فيها، من خلال إعداد برامج تعليمية يؤدي بعضها إلى البعض الآخر لتتكامل وتُشكّل شخصيّة مثقّفة، واعية بذاتها المندمجة في ذات الأمة -الحضارية- وهذه هي إستراتيجية التعليم الحقة التي تسمو فيها المضامين على الأشكال الجوفاء الخاوية...

وقد صَنّف علماء التربية «التربية» إلى خمسة أنواع بيّنوا من خلالها هدف كل نوع وما يرمي إليه في تشكيل شخصية الفرد - رجل المستقبل - وإعداده للحياة , وهي كما استخلصتها من كتاب أحمد مختار عضاضة " التربية العلمية التطبيقية " (ط03 , مؤسّسة الشرق الأوسط للطباعة والنشر , لبنان - 1962) :

1. التربية الجسمية.
2. التربية العقلية.
3. التربية الخلقية.
4. التربية الاجتماعية.
5. التربية الجمالية.

1- **فالتربية الجسمية** : تعد أساسية كما أكد علماء النفس وذلك لوجود رابطة بين الجسم والعقل، وكل ما يؤثر في العقل يؤثر في الجسم.

2- **وهدف التربية العقلية** يرمي إلى تعويد التلاميذ حسن التفكير ومعرفة طريقة الفهم والإدراك، وذلك لكي يتمكن الفرد من كسب المعارف في حياته العملية، فيما بعد..

3- **وهدف التربية الخلقية** يعد تكميليا لهدف كل من التربية الجسمية والتربية العقلية، ذلك أن الطفل بحاجة إلى قوة الجسم والعقل والأخلاق، وهذا يقوي فيه قول الحق والدفاع عنه..

4- التربية الاجتماعية وتهدف إلى إعداد التلاميذ إعداداً اجتماعياً للحياة مثل إعدادهم جسمياً وعقلياً وخلقياً..

5- وأما هدف التربية الجمالية فهو تغذية التلاميذ بالناحية الفنية الجميلة وذلك حتى يتمكنوا من التعبير عن عواطفهم.. وتنمية أذواقهم بحيث يكون لهم ذوق سليم .. ويُقدِّرون كل جميل..

هذه هي الركائز الأساسية التي لا يمكن أن تستغني عنها أي إستراتيجية تعليمية. والذي يميز بين إستراتيجية وأخرى هو توجُّهات الأمة وثوابتها التي تتبنّاها البرامج التفصيلية المحددة للمواد والموضوعات المقررة. ويبقى الجانب السلبي الأكبر الملاحظ، على برامجنا التعليمية - كما سبق لنا أن بينا- هو أننا لم نحسن الاستفادة بما وصل إليه الآخر من تطور في برامج التعليم، ذلك لأننا حينما نعجب بجانب إيجابي في برنامج نأخذه كما هو دون أن نراعي الأسس التي قام عليها والأهداف التي يرمي إليها واضعوا هذه البرامج عندهم، أي نأخذ الشيء من الآخر دون أن ننتبه إلى أنه يحمل خصوصيته.

وهنا، علينا ألا نأخذ كل ما أنتج من أفكار بل علينا أن نأخذ عنه ما يناسب فلسفتنا الواقعية -المرتبطة بكل قيمنا- وما نحتاجه لإثراء فكرنا وتوسيع نظرتنا، أي علينا أن نأخذ الرؤية الفكرية المنهجية ولا نأخذ خصوصيته لأن لنا خصوصيتنا . وتبسيطاً لذلك أذكر - على سبيل المثال - أن شخصاً أثبت التحليل أن دمه من فصيلة «ألف موجب»، وهو يحتاج إلى كمية من الدم، فهل يمكننا في هذه الحال أن نحقنه بأي دم مهما كانت فصيلته أم أنه يحتاج دماً من فصيلته أو من فصيلة تناسب دمه وصالحة له ؟

كذلك الحال بالنسبة للفكر فإنه يحتاج إلى ما يناسب خصوصيته ويقويه. و في هذا الجانب تعلمنا -في طفولتنا- مقولة لجبران خليل جبران يقول فيها : «أخذ الغرب منا فحول ما أخذه إلى غربي، وأخذنا من الغرب فحولنا من أخذناه إلى غربيين».

ومعنى هذا أن الغرب أخذ علمنا و لم يأخذ خصوصيتنا، ولهذا نراه يُسبغ خصوصيته على ما يأخذ، فنظن أنه من ابتكاره ، وأما نحن فعلى العكس لا نأخذ علم الغرب بقدر ما نأخذ خصوصيته وننبره بمظاهر حياته فنقلدها، فنصبح صورة ممسوخة لاهي عربية ولا هي عربية ... ومن هنا يصبح الواحد منا يُعبّر عن

أحاسيسه وأهدافه بمنطق الآخر وينظر إلى واقعه بمنظاره...، وبهذه الرؤية لا يمكننا أن نضع إستراتيجية للتعليم خاصة بنا.

نحن نريد أن نأخذ ما يجب يؤخذ أي نأخذ علمهم ومنهجهم ولا نأخذ خصوصيتهم، يجب أن نكون كاليابانيين - وكل الشعوب المتمسكة بأصالتها- الذين أخذوا، منذ حوالي قرنين من الآن، علوم الغرب عن طريق البعثات العلمية، وعجنوا كل ما أخذوه -بماء خصوصيتهم- وأخرجوا معجزة القرن العشرين، وبدايات القرن الواحد والعشرين، باكتشافاتهم العلمية الباهرة، ولكنهم لم ينسلخوا عن أصالتهم ولم يُهملوا خصوصيتهم بما حوت من ثوابتهم، في كل برامجهم التعليمية من الروضة إلى الجامعة. على هذا الأساس الواعي نريد أن نُقيم إستراتيجية التعليم، والثقافة، والاقتصاد و كل السياسات الأخرى...

ولن نتجح أي إستراتيجية للتعليم، مهما كان نوعها، إلا إذا راعت، إلى جانب إعداد البرامج وفلسفتها كيفية إعداد المدرّس، الإنسان، الكفاء، الذي يملك وعيا وإحساسا قويا بالذات، وتشبعا بخصوصيته. وكل هذه العناصر تجعله يشعر شعورا قويا برسالتة ومسئوليته الكاملة في إعداد الأجيال الصالحة التي تبني هذه الأمة وتحميها وتؤمن مسارها عبر التاريخ، وبخاصة في زمن العولمة التي تعمل على إذابتنا ومحو شخصيتنا وقهرنا والاستيلاء على ثرواتنا وتأخيرنا...

وإذا كنّا قد وقفنا عند البُعد الفلسفي لتأسيس الفكر الإستراتيجي الحيّ فإننا نجد الوجه الآخر للإستراتيجية يتمثل في البُعد التطبيقي العملي لها، الذي يهدف إلى تكوين الإطارات التي تحتاجها البلاد في كل ميادين الحياة المختلفة، بحيث تصبح هذه الإطارات مشرفة على تسيير مؤسسات الدولة، التي تعمل بتكامل دون أن يصيبها أي خلل. والإستراتيجية الواعية المؤسسة على دراسات علمية تحمي اقتصاد البلاد وتضمن السيّر الحسن لمؤسسات ووظائف الدولة، وتجعلها حرة في اتخاذ قراراتها، مستقلة، بعيدة عن كل تبعية للآخر، بحيث تكون المعاملة معه معاملة الندية.

إن كل إستراتيجية تخرج عن إطار سياسة الدولة -الرشيدة- تكون نتيجتها تشويش الفكر والانحراف به نحو الهاوية وضرب الهوية. و أقول - أخيرا - إن الإستراتيجية الهادفة، المتمثلة لكل قيم الأمة، تبعث، بتطبيقاتها، التوازن في شخصية الفرد والأمة. ولهذا فإن السياسات الحكيمة للدول الحية تُولي، في تقسيم ميزانياتها السنوية، اهتماما كبيرا بسلوك التعليم.